حرية الفكر في الإسلام

د. محمد صابر عرب

المتابع لأحوال المسلمين في العالم المعاصر يتعجب مما آل إليه الأمر، على آل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فبينما العالم من مشرقه إلى مغربه يندفع نحو المستقبل، وقد تخلص من أمراضه الفكرية والاجتماعية في خطى ثابتة نحو تحقيق سعادة الإنسان الذي هو محور التنمية وهدفها الحقيقي. بينما يلاحظ أن معظم الدول الإسلامية هي التي ما تزال تمضي في حلقة مفرغة، بعد أن استنفدت طاقاتها وإمكاناتها في مشاحنات وصراعات دموية أحيانًا. والمشهد المأساوي لا يخفى على أحد ابتداء من بآستان وأفغانستان وإيران وصولاً إلى القرن الإفريقي، الذي يعيش حياة مأساوية، وفي الغالب يكون الإسلام هو الضحية، فالمجميع يموت باسم الإسلام، والجميع يدعي أنه يقاتل في سبيل الإسلام، والإسلام براء من الجميع.

لقد نشرت دار الكتب والوثائق القومية آتابًا غاية في الأهمية «حرية الفكر في الإسلام» للعالم المرحوم عبد المتعال الصعيدي (١٣١٣هـ-١٨٩٥م/

١٣٩١هـ- ١٩٧١م)، هو نموذج للفكر الإسلامي الصحيح الذي يستهدف الحرية بمعناها الحقيقي لأن التضييق على الناس في باب الحرية الفكرية لا يتفق وصحيح الدين، لأن التعسف في باب الحريات هو صناعة بشرية خالصة لا علاقة لها بالدين، والإسلام لم يغلق قط باب الاجتهاد على الناس، والمجتهد لا إثم عليه فيما اجتهد فيه ولو أخطأ طريق الصواب.

وليس في الإسلام ما يجوز قتل أو تكفير أي فرد أو جماعة اجتهدت، حتى ولو أخطأت في اجتهادها. والمؤلف وهو واحد من علماء الإسلام الكبار يرى أن المجتهد لا يعذر في خطئه، حتى إذا مضى إلى أخر ما يتصوره العقل في حدود اجتهاده.

وقد ذهب الشيخ محمود شلتوت في كتابه الشهير: «الإسلام عقيدة وشريعة» إلى التأكيد على أن الحرية الدينية مكفولة للجميع لدرجة أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا بنحو ذلك، لا تجري عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم وبعض، وليس معنى ذلك أنه يكون كافرًا عند الله، بل معناه أن لا تجري عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلين من عبادات ولا يصلى عليه إذا مات، ولا يرثه قريبه المسلم، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات.

أما الحكم بكفره فهو يتوقف على أن يكون قد أنكر العقائد، بعد أن بلغته على وجهها الصحيح، أو بلغته بصورة منفرة حينئذ لا يكون آثمًا، ولا يعيب الإنسان وهو يبحث عن الحقيقة أن يضل طريقه، ولم يخول الله سبحانه وتعالى فردًا أو جماعة لكي تتلمس عورات الناس، أو تفتش في ضمائرهم فالأمر آله متروك إلى الله.

لقد راح المؤلف وقد تملك آل مصادر التشريع يطرق قضايا رآها بديهية فاستقر ضميره إليها بينما رأيناها في مجتمعاتنا المعاصرة خلافًا وصراعًا استبحنا من أجلها رقاب البشر، ورحنا نفتش في ضمائرهم اعتقادًا منا بأننا ندافع عن الإسلام، لذا انفردنا عن آل شعوب الدنيا المعاصرة بأن استبحنا دم المخالفين ونصبنا أنفسنا نوابًا لله في الأرض. وحاش لله أن يكون له نواب، واختزلنا الإسلام في نماذج منفرة أصابت الإسلام ونالت من قيمة الإنسانية السمحة، حتى وسائل العلم الحديث أخضعناها لمفاهيمنا الضيقة وأضفينا على الإسلام رؤيتنا الضيقة بينما العلوم المعاصرة لا سلطان فيها إلا للعقل.

لقد ذهب المؤلف في اجتهاده لدرجة قوله بأن العلم يطلب على إطلاقه، دون تحديد الغاية منه، فلا يقتصر طلبه على أن يكون لأجل الوصول إلى الإيمان